المحاضرة الثالثة + الرابعة: أغراض الموشحات

أغراض الموشحات

ثمة شبه اتفاق على ان الموشحات ارتبطت منذ اطوارها الأولى بالموسيقى والغناء، ومن الطبيعي والأمر كذلك، أن تكون الموضوعات الذائعة ذات صلة بالوصف والحنين والغزل والخمريات، ويبدأ الشعر في طور لاحق في معالجة الفنون الأخرى التقليدية من مديح وهجاء ورثاء وشعر ديني، الخ ..

ويرى ابن سناء الملك ان "الموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمديح والرثاء والهجر والمجون والزهد.."

أولاً: الغزل:

ليس هناك شك في ان الغزل يحتل محل الصدارة في الموشحات الأندلسية وإذا صدقت رواية ابن شاكر الكتبي صاحب كتاب "فوات الوفيات" فإن الموشحة التي مطلعها:

مـــن ولـي

في أمة أمراً ولم يعدلِ

يـــعـــزلِ

إلا لحاظ الرشأ الأكحـــــل

تكون من أقدم النصوص التي وصلت إلينا، إذ أنه نسبها لعبادة بن ماء السماء (المتوفى نحو سنة 429) وكذلك أخرى نسبة له أيضاً في "الفوات" أولها:

حب المها عبادة

من كل بسام السواري

ومن أجمل الموشحات الغزلية موشحة الأعمى التطيلي:

ضاحك عن جمان

سافر عن بدرِ

وموشحة أبي بكر بن زهر:

حي الوجوه الملاحا

وحي نُجل العيون

هل في الهوى من جناحِ

أو في نديم وراحِ

رام النصيح صلاحي

وكيف أرجو صلاحا

بين الهوى والمجون

أبكي العيون البواكي

تذكار أخت السماك

حتى حما الأراكِ

بكى شجوني وناح

على فروع الغصون

ويمكن أن نجمل ملحوظاتنا عن الموشحات الغزلية فيما يلي:

1. تحتل الموشحات الغزلية المكانة الولى م حيث الكثرة العددية.

2. هنالك في الوقت نفسه، موشحات عديدة يختلط فيها الغزل بموضوعات أخرى وصفية أو خمرية أومدحية.

3. الجانب الأعظم م هذه الموشحات الغزلية لا يعكسلنا صدقا عاطفيا، ولا نحس فيه بلوعة المشاعر وعمق الأحاسيس، ولكن الوشاحين ايتطاعوا ، في أحايين كثيرة ، التغلب على هذا الضعف عن طريق اصطناع اللفاظ الرقيقة، والصور الشعرية الآسرة، والموسيقى الموحية.

4. تتناول الموشحات الغزلية موضوع الحب من زوايا مختلفة، وهناك تيار عذري قوي في الموشحات.

ثانياً: **الخمريات**:

وهي كثيرة الشيوع في الموشحات ،وبخاصة مادار منها حول موضوعات الحب والوصف، وبعبارة أخرى إن الخمر لا تشغل في العادة الموشحة كلها، بل تأتي كعتصر مساعد، باستثناء نماذج قليقلةبنيت أساساً على وصف الخمر ومجلسها، مثل موشحة أبي بقى:

أدر لنا أكواب

يُنسى بها الوجدُ

واستحضر الجلاس

كما اقتضى الود

وهذا النص استهل بوصف الخمر وختم بها، وإن تخلله مقطع في المديح.

ولبن زهر موشحة استهلها بالحديث عن الخمر، ثم ما لبث أن عرج فيها على الوصف والغزل وأول النص:

شمس قارنت بدرا

راحٌ ونديم

أدر كؤوس الخمرِ

عنبريـــة النشـــرِ

إن الروض ذو بشرِ

وقد درع النهرا

هبوب النسيم

وقد يمزج الوشّاح بين موضوعات الخمر والغزل، لينتهي بعد ذلك إلى المديح، كما في الموشحة الآتية:

رح للراح وبـــاكر

بـــالمُعلَم المشوف

غبـــــوقًا وصبوح

على الوتر الفصيح

ليس اسم الخمر عندي

مـــأخوذاً فاعلم

إلا من خـــاء الخد

وميـــم المبســـم

ثالثاً: **الوصف**:

ويشكل الوصف، بصورة عامة، عنصرا أساسياً من عناصر الموشحة الأندلسية، والوصف يأتي في العادة ممتزجاً بالغزل ولحديث عن الخمر، ولكن هناك في الوقت نفسه عدداً من الموشحات بنيت على الوصف، مثل موشحة أبي عبدالله البطليموس المعروف بالكميت:

لاح للروض على غر البطاح

زَهَرٌ زاهرُ

وثنا جيداً فنعم الأقاح

نَوْره الناظرُ

زارني منه على وجه الصباح

أرجٌ عاطرُ

نثر الطل عليها حين فاح

أيما عقد

حبذ البشر لي عند افتتاح

وجنة الورد

ومن أجمل الموشحات في وصف الطبيعة موشحة أبي جعفر بن سعيد وأولها:

ذهبت شمس الأصيل

فضة النهرِ

أي نهر كالمدامة

صيّر الظل فدامة

نسجته الريح لامة

وثنت للغصن لامة

فهو كالعضب الثقيل

خُفض بالشفرِ

وهناك موشحات كثيرة بدئ فيها بالوصف كتمهيد لمقطع المديح ، منها موشحة الأعمى التطيلي:

جيش الظلام بالصبح مهزوم

فقم بنا يانديم

وموشحة أبي بكر محمد بن الأبيض:

روضة وسيمة الأقحوان

تجتنى بالأماني

رابعاً: المديح:

يميل كثير من الدارسين الى الاعتقاد بأن الموشحات في ظهورها الول لم تكن تعالج الموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وهجاء، بل كانت تعالج موضوعات الغزل والخمر ووصف الطبيعة كما يقول الدكتور مصطفى عوض، وما لبثت أن صارت مطية ذلولاً للأمداح ، حينما استغلها الوشاحون للوصول إلى عطايا الملوك والأمراء وهباتهم..

ونستطيع الاطمئنان الى الرأي القائل: "أكثر الموشحات التي قيلت في المديح إن لم تكن جميعاً قد مزجت بين الطبيعة والغزل والخمر قبل أن تدلف الى صميم المديح" ولكن هناك موشحة واحدة على الأقل للوزير أبي عامر بن ينق وأولها:

سراج عدلك يزهر

قد عمّ كل العباد

ونور وجهك يبهر

سناه للخلق باد

وليحيى بن الصيرفي الغرناطي المؤرخ المتوفى سنة 557 هجـ:

جرّر الذيل أيمّا جرّ

وصل السكَر منك بالسُّكر

ويشغل المقطع الخمري هنا حيزاً كبيراً من الموشحة ، ثم يفضي بنا هذا المقطع الى المديح الذي يستغرق بقية النص كل:

ذاك ضوء الصباح قد لاحا

ونسيم الرياض قد فاحا

لا تقد في الظلام مصباحا

خل عنه وشعشع الراحا

حين تنهل ادمع القطر

وترى الروض باسم الزهر

نظمت جوهر العلا سلكا

كف ملك يزيم المُلكا

ما برا الله مثله ملكا

لاح بدراً وفاح لي مسكا

وهناك في هذا الصدد موشحة لسان الدين بن الخطيب الشهيرة:

جادك الغيث إذ الغيث هما

يازمان الوصل في الأندلس

وتعد بدورها من موشحات المديح، وإن كان الناس لا يذطرون ، في العادة، إلا قسمها الأولالذي يدور حول الغزل ووصف الطبيعة.

خامساً: الموشحات الدينية والصوفية:

لا نعرف متى بدأ النظم في هذا اللون من ألوان الموشحات وأقدم ما هنالك منها ينسب لابن عربي (توفي سنة 638) وقد تضمن ديوانه الأكبر عدداً كبيراً من الموشحات والأزجال والمزنمات، وكلها تسبح في جو الرموز الصوفية من قبيل الموشحة التي تبدأ بـ :

تدرع لا هوتي بناسوتي

وحصّل موسى اليم تابوتي

ومن هذه الموشحات واحدة جاءت على نسق موشحة ابن زهر (أيها الساقي " أولها:

عندما لاح لعيني المتكا

ذبت شوقا للذي كان معي...

أيها البيت العتيق المشرف

جاءك العبد الضعيف المسرف

عيناه بالـــــدمع دوما تذرف

فرية منه ومكرا فالبـــــــكا

ليس محمودا إذا لم ينفع ...

أما ديوان الششتري فإن الأزجال تطغى فيه على الموشحات، هذا بالإضافة الى قدر كبير مما تختلط فيه الفصحى بالعامية، أ، التي تبنى على غير الأنماط التقليدية للموشحة. ومن الموشحات التقليدية قوله:

صاح هذه الأسرار

قد أشعلت في

الحشا مني النار

مذ لاح سر من نهواه

لم أستطع كتم ما ألقاه

من شجو قلبي ومن شكواه

ويح قلبي قد طار

في ذا الهوى سابحاً

ذا استهتار

ملاحظة:

كان لانتقال متصوفة المغرب من أمثال ابن عربي والششتري الى المشرق أثره البعيد في انتشار هذا اللون من الموشحات الصوفية في كل انحاء العالم الإسلامي، وإلى تغلغله في أوساط الشعب حتى أصبحت كلمة "التوشيح" مرتبطة في الأذهان بالأناشيد الدينية والصوفية.